الأحياء القصديرية في المدن الشمال ـ أفريقية

د. فرج السطنبولي *

ان جل الباحثين الذين انكبوا خلال السنوات الاخيرة على دراسة مشاكل المدن في مجتمعات المغرب العربي المعاصر يؤكدون على ظاهرة حديثة نسبيا في الديناميكية الحضرية لهاته المجتمعات وهي انتشار واسع لنوع من السكن « العفوي » والمرتجل وتنعت هذه الظاهرة عادة بالاحياء القصديرية ** (Bidonvilles, Slums) . ومن الجدير بالملاحظة في بداية هذه الدراسة هو أن هذه الاحياء أصبحت تعد اليوم أكثر من ثلث سكان المدن الكبيرة وما يقرب من نصف السكان اذا اعتبرنا أولئك الذين يسكنون الاحياء الفقيرة داخل الشق العتيق (Médina) من المدن أو الجهات المعفنة الاخرى .

وهناك من الباحثين الذين يصفون سكان الاحياء القصديرية بالهامشية (Marginalité) . فبالاضافة الى الانحياز الايديولوجي (Idéologie) الذي يتضمنه هذا التأويل فانه في الحقيقة يرمي الى اخفاء الجوهر في مشكل هؤلاء السكان وانكاره ، اذ كيف يمكن أن نعتبر نصف سكان المدن الكبيرة في المغرب العربي بالهامشيين في حين أنه يحتم علينا اعتبار هذه الظاهرة كتعبير عميق عن التحولات الهيكلية الجذرية التي حدثت في المجتمع برمته والتي انعكست بخاصة على الفراغ المديني (Espace Urbain) فقلبت شكليته وهدمت أسسه ومقوماته العتيقة .

فاذا اردنا ان نضع ظاهرة الاحياء القصديرية في اطارها الموضوعي والمركز فلا بد أن نلقي نظرة تاريخية خاطفة تمكننا من وصف وتحليل أهم التحولات الهيكلية التي تولدت عنها هاته الاحياء .

ولقد لحقت هذه التحولات الهياكل الاقتصادية والاجتماعية والديمغرافية وانعكس تأثيرها على الريف والمدن في آن واحد فكانت نتيجة مسار حضري

---

* استاذ علم الاجتماع بكلية الآداب والعلوم الانسانية في الجامعة التونسية .

** الاصطلاح المتداول في المشرق العربي مقابل كلمة « القصديرية » هو التنك أو الصفيح .

محدد(Processus D'Urbanisation Spécifique)مغاير تماما للمسار الذي ظهر في المجتمعات الغربية خلال القرن التاسع عشر . ولقد مرت هـذه الحركة الحضرية بفترتين : فترة الاستعمار وفترة النهضة والبناء الوطني . وسـوف نحاول من خلال هذا التحليل ابراز مقومات كل من هاتين الفترتين ثم نسلط في الختام اضواء جديدة على مفهوم النمو الحضري في المغرب العـربي .

الفصل الاول : النظام الاستعماري والتجذر المبعثر :

لقد اثر الاستعمار تاثيرا عميقا على المجتمع المغربي وتسبب في جملة من التغييرات الهيكلية الاقتصادية والاجتماعية وسنحلل بايجاز اهم العوامل التي اثرت مباشرة على عملية التحضر :

أ ـ نهب الاراضي والتحول الكلي للهياكل الفلاحية الاصيلة .

ب ـ ظهور الاحيـاء القصديرية .

ج ـ النشاز والخلل بين التحضر والنمو الاقتصادي والتشغيل .

أ ـ نهب الاراضي والتغيير الكلي للهياكل الفلاحية الاصيلة :

كان لزاما على الاستعمار الاقتصادي في المغرب العربي أن يمتد الى القطاع الفلاحي والصناعي والتجاري والمصرفي . وكان الاستعمار الفلاحي يشد اكثر من غيره الانتباه بحيث اسفرت العملية بكثافتها عن انقلاب فـي الهياكل الفلاحية القديمة تحول على اثرها اكثر من خمسة ملايين من الاراضي المنتجة الى ايدي المعمرين الاجانب . ونظرا لاتساع العملية نتج عـن هذا النهب استعمار استيطاني .

ففي تونس كان انتزاع الاراضي مريعا (ربع خيرة الاراضي) وامتد خاصة على الفترة الممتدة من سنة ١٨٩٢ الى ١٩١٤ . أما بالنسبة للجزائر فان سنوات ١٨٥٧ ـ ١٨٦٣ ـ ١٨٧٣ التي تتطابق والعملية المسماة بتحـديد الاراضي والسيناتوس ـ كنسولت وقانون وارنييه (Sentatus Consult Loi Warnier) تمثـل اهم مراحـل نزع ملكيـة الاهالي والتي تفـوق المليـونين والنصف مليون من الهكتارات . واما في المغرب فان العملية نفسها استطاعت نهـب مليون هكتـار .

تتجه نية المعمرين بعملهم الهادف الى انهيار القاعدة الاقتصـادية للمجتمع الريفي ، الى تفكيك الهياكل الاجتماعية التي تعتبر الحاجز الاساسي لانتعاش النظام الاستعماري في شمال افريقيا . صرح أحد واضعـي السيناتوس ـ كنسولت بأن هذا الاجراء يرمي الى « تصفية شاملة للاراضي

... والى جلب واستقبال الهجرة الاوربية ... والى التشتيت القبلي » . (١)

لقد استطاعت هذه العملية الواسعة لنزع الملكية العقارية للاهالي أن تفكك ، تفكيكا جذريا ، التوازن الاقتصادي القائم على استحالة تقسيم الاراضي التي تعتبر الضامن الاساسي لاندماج التراث العائلي والقبلي وللتناسق الاجتماعي للجماعات الريفية . ويتوارى الاندماج والحركة الاجتماعية ليحل محلها الانخرام والتفكك (٢) ويفقد المجتمع هياكله بفقدان قاعدته الاقتصادية وهكذا يجرفه سيل النزوح الريفي الذي وصفه الملاحظون لتلك الفترة ، والذي أنتج بدوره هذا التطور الحضري « المرضي » الذي تمخض عن ظهور المدن القصديرية الاولى في شمال افريقيا .

ب ــ ظهور المدن القصديرية :

ان تكسير القواعد الاقتصادية للمجتمعات الفلاحية أنتج نزوحا جماهيريا ولد بدوره مدينة غير متوازنة ازدادت خطرا بالنمو الديمغرافي الذي أصبح محتوما اعتبارا من الحرب العالمية الثانية . ان التطور الحضري اللا متوازن فرض نفسه في جميع اصقاع شمال افريقيا ابتداء من الثلاثينات لينتشر انتشارا مطردا بعد الحرب العالمية الثانية . وفي أقل من ثلاثين سنة اي من سنة ١٩٣٠ــ١٩٥٦ تضاعف عدد سكان المدن اذ مر من (١٧ ٪) الى (٣٠ ٪) . وتتجاوز نسبة النمو الحضري (٥ ٪) في العام تقريبا (٣) بحيث اضحت أهم مدن شمال افريقيا تنمو بصفة سريعة (٤) ، ولاول مرة وفي هذا الاطار من التطور الحضري الحاد (Paroxistique) تظهر المدن القصديرية (٥) . وهذه « الاحزمة من البؤس » التي تحدث عنها العديد من الكتاب ، ان عبرت عن شيء فانما تعبر عن تناقضات النظام الاستعماري وعن عملية التفكك الواسعة التي يستهدف اليها المجتمع المهيمن عليه (٥ Bis) (Dominé) .

وتتسع رقعة هذه الاحزمة بسرعة حول عواصم شمال افريقيا وحول بعض المدن الصناعية والتجارية . وتتطور نسبة سكان المدن القصديرية تطورا مذهلا بحيث تمثل ربع سكان مدينة تونس وثلث سكان مدينة الجزائر وخمس سكان الدار البيضاء (٦) .

ج ــ النشاز والخلل بين التطور الحضري والنمو الاقتصادي والتشغيل :

خلافا لانموذج التطور الحضري في المجتمعات الصناعية يمتاز أنموذج التطور الحضري الشمال ــ افريقي في فترة الاستعمار بوجود هوة بين العمران الحضري والتصنيع والنمو الاقتصادي والتشغيل ، وبالتالي نجد

انفسنا امام عمران بدون تصنيع او نمو اقتصادي ولذلك نجد انفسنا امام عمران حضري مرضي (Pathologique) .

١ ــ ضعف النمو الاقتصادي :

ينعدم كل تطابق بين العمران الحضري والتصنيع وبين ما يسمى بالتقدم الاجتماعي في بلدان شمال افريقيا ذلك لان الاقلية الاستعمارية كانت تستحوذ على الانتاج وتصدر المرابح الى اوطانها . اما مواطن الشغل الصناعية فهي جد قليلة ولا يتمتع بها الا النفر القليل من الاهالي . ويؤكد سمير أمين في بحث حديث له على ظاهرة العمران الحضاري غير المصحوبة بالتصنيع . ونراه يقول بعد تحليل تناقضات النظام الاستعماري أن « نسبة ودرجة النمو عرفا ضعفا وعدم انضباط كبيرين ... ولم تكن لعملية استثمار رؤوس الاموال فاعلية عظمى . وبالتالي فان التصنيع الثقيل والخفيف كان محدودا (٨) » .

ومن ناحية اخرى وانطلاقا من أن الاقلية المستعمرة بحكمها المباشر تستحوذ على اغلبية المراكز السياسية والادارية ، نلاحظ أن جملة الحياة الاجتماعية مكيفة حسب مصالح المجتمع المهيمن وانطلاقا كذلك من الفوارق في التشغيل الحضري بين السكان الاجانب والمسلمين يصل سمير أمين الى هذا الاستنتاج : « ان الاجانب لا يحتلون كل مراكز النفوذ في الدولة والاقتصاد فحسب بل يمثلون كذلك اليد العاملة المختصة وشبه المختصة » .

وبالنسبة للجزائر ، يقول روبير دي كلواتر « تعتبر عاصمة الجزائر في سنة ١٩٥٤ مقرا للتبادل من النمط الاستعماري ذلك لان نشاطها لا يساهم الا بالقليل في تطور الاقتصاد الجزائري وفي معيشة سكانها ... والجزائر تعبر بوضوح عن التأخر الصناعي اذ أن صناعتها تمثل ذيلا للاقتصاد الفرنسي ... و (٧٠ ٪) من مواطن الشغل في الجزائر بالنسبة للقطاع التجاري محتكرة من الاوروبيين (٩) .

٢ ــ ظهور الطبقات المعدمة :

وفي هذه الظروف لا يصعب تخيل نسبة البطالة وانعدام الشغل السائدة في النظام الاستعماري لشمال افريقيا سواء اكان ذلك في الريف أم بالمدينة وخاصة بالاحياء القصديرية . ونظرا لانعدام احصائيات مبلورة حول ضخامة البطالة في الاحياء القصديرية فاننا نكتفي ببعض المعلومات المبعثرة .

ففي الدار البيضاء تم تعداد (١٠.٠٠٠) عاطل عن العمل سنة ١٩٣٤ . وابان الاستقلال مثلت نسبة البطالة (٢٠ ٪) من القوى البشرية

المنتجة . وتبرز نتائج تحقيق قامت به السلطة الحاكمة حول المداخيل الشهرية للعائلات بالحي القصديري (درب جديد) بالدار البيضاء (١٠) ، تبرز ضعف المداخيل لهذا الحي وعدم قدرته على مجابهة الحياة . كما ظهرت عدة تحقيقات حول الاحياء القصديرية لمدينة تونس أبرز واحد منها ، تحقق سنة (١٩٥٠) بالحي القصديري (جبال الحمر) أن ثلثي السكان مكونون من عمال يوميين واخرين لا عمل لهم . وفي وصف حالة البؤس التي يتردى فيها السكان يقول المحققون : « تعتبر تونس غريبة في هذا الخضم من الشقاء حيث يعمل رب العائلة حمالا بالميناء تارة ومنظفا لسلات المهملات او سارقا طورا أخر ، وتلتقط الام الكواخظ وتزني البنت ويتسول الابناء الصغار (١١) . ومن خلال تحليل الهياكل الاجتماعية والمهنية لمدينة قصديرية اخرى بتونس يكتشف (بول سيباق) أن الطبقات السفلى للبروليتاريا تمثل (٨ر٦١ ٪) والطبقة الشغيلة تمثل (٤ر٢٠٪) (١٢) .

ان اغلب الابحاث التي دارت حول مدن الصفيح تحدد الى (٦٠٪) نسبة الشرائح السفلى للبروليتاريا ونجد انفسنا في اغلب الاحيان امام سكان اقتلعوا من حقولهم وتغربوا دون أن يكونوا مسلحين بشغل و ثقافة او تكوين مهني يساعدهم على مجابهة ظروف الحياة الصعبة . وبناء على ذلك فان النزوح لا يفسر بالجاذبية (Pull) المدينية وبديناميكية المجتمع الحضري وانما بانقلاب (Push) فلاحي وانحلال المجتمع الريفي .

الخلاصة :

ان رسوخ النظام الاستعماري في شمال افريقيا قد غير المجتمع بأسره واقتصاده تغييرا جذريا . ولا يكون لهذه التغييرات البارزة التي رسمنا خطوطها في هذا الفصل الاول من معنى الا اذا ارتبطت بعضها ببعض ووضعت في اطارها الصحيح . وهذه التغييرات تكون خطا تصاعديا . ولا يمكن فهم البروز المفاجيء لهذه المساحات التحت عمرانية (Infra Urbain) وهي الاحياء القصديرية والبطالة التي تميزها ، الا اذا وضعت في نفس افق نهب الارض والتصنيع الضعيف الموجه نحو العالم الامبريالي ، والغياب الكلي لسياسة تربوية وللتشغيل . وظاهرة كالبطالة التي بلغت حدودا عريضة تأخذ أهمية خاصة بها . فبعيدا عن أن تكون تعبيرا عن حالة عرضية كما هو الشأن في المجتمعات المتصنعة فهي تمثل على العكس ، ضغطا هيكليا نتيجة تناقضات الاقتصاد والمجتمع الاستعماريين .

وهذه الظاهرة من بين ظاهرات اخرى ، هي النتيجة الحتمية لحالة استعمارية (١٣) قد أوجدت مجتمعين غير متساويي القوة . فمنذ البداية

شوش النظام الاستعماري جذريا قاعدة مجتمع شمال افريقيا وذلك بالنهب الكلي والمتواصل للارض دون ان يستطيع القيام بالتحويلات الشكلية (١٣) اللازمة لخلق تغيير جذرى وكلي في المجتمع بأسره .

الفصل الثاني : العمران الحضري والتغيير الاجتماعي في شمال افريقيا بعد الاستعمار المباشر :

تطورت عملية « التمدين » (او العمران الحضري) في شمال افريقيا بعد الاستعمار المباشر بصفة خارقة للعادة . وظهرت كنتيجة لتظافر عوامل اهمها :

- تطور سكاني سريع ـ استيطان السكان الاوروبيين مكان السكان المسلمين .
- التغييرات الفلاحية وسقوط مستوى معيشة الفلاحين الصغار .
- حركة تعليمية واسعة وتحرك اجتماعي قوي . واخيرا
- تصنيع متواصل .

ولا يخفى علينا ان هذه العوامل ليست الوحيدة من حيث تأثيرها على حركة التطور العمراني الحالي وليست لها الحدة نفسها في البلدان الثلاثة الشمال ـ افريقية . كما انها عاجزة عن تفسير الديناميكية الكلية للمجتمع بصفة مباشرة ، وعن ابراز التطور العمراني كنتيجة لهذه الديناميكية ورغم كل هذا فان العوامل الآنفة الذكر تسمح لنا بتسليط بعض الاضواء وفهم آفاق التطور العمراني الحالي لشمال افريقيا وسوف نحاول في الفصل الثالث التعرض اجماليا لهذه العوامل والاقتصار على تحليل المدن القصديرية .

١ ـ احتداد عملية التطور العمراني :

ورغم رجوع مليون ونصف المليون من المستعمرين الى اوطانهم بعد الاستعمار المباشر فقد اخذت مدن شمال افريقيا تتطور بسرعة مذهلة ، فسكان المدن يمثلون حاليا ٣٠٪ من جملة السكان وسيصلون الى ٥٠٪ في العشريات المقبلة من السنين (١٥) لقد تضاعف عددهم في عشرية واحدة وقفز من سبعة ملايين و ٨٠٠ر٠٠٠ نسمة في ١٩٥٥ الى ١٠ ملايين و ٧٠٠ر٠٠٠ نسمة في ١٩٧٠ . وسجلت المدن الكبيرة على الخصوص نسبة نمو كبيرة وصلت الى ١٠٪ سنويا .

فمدينة مثل الدار البيضاء تشهد مضاعفة لسكانها كل عشرية بحيث قفز عدد السكان من نصف المليون في ١٩٥٧ الى ١ر٢٠٠ر٠٠٠ نسمة في

١٩٦٧ ويصل الى المليونين سنة ١٩٧٥ (١٦) أما الجزائر العاصمة فبينما كان عدد سكانها يتراوح بين ٤٤٩ر٠٠٠ في ١٩٥٤ أصبح سنة ١٩٦٦ يصل الى ٨٩٧ر٠٠٠ نسمة ، واما مدينة تونس فقد تضاعف عدد سكانها بين ١٩٥٦ و ١٩٧١ وسيبلغ سنة ١٩٨٠ / ٢٠٠ر٠٠٠ نسمة وحتى المدن مثل فاس وقسطنطينة وعنابة التي تعد عادة من المدن المتوسطة تضاعف عدد سكانها في عشرية واحدة .

٢ ــ احتداد وتغيير مفهوم النزوح :

ان ظاهرة التطور العمراني لا تفسر بالنمو الديمغرافي المرتفع فحسب (نسبة النمو الطبيعي المرتفع تقدر بـ ٣٠٪) بل كذلك وخاصة بالنزوح الريفي الذي يزداد حدة يوما بعد يوم . ان نوع هذا النزوح يعتبر نتيجة التحولات الهيكلية في الميدان الفلاحي (التجربة التجارية في تونس) وخلاصة لضعف مستوى معيشة الفلاحين (١٧) ويظهر لنا تحقيق جرى حديثا بتونس أن تيار النزوح تضاعف بين ١٩٦٥ و ١٩٦٦ (١٨) وهذا التاريخ يقترن بظهور تجربة التعاضد الفلاحية ويمكن اعتبار مثل هذا النزوح تيارا يسمح بالصعود في السلم الاجتماعي ذلك أن عديدا من الابحاث أظهرت أن النزوح الذي يتكون من اطارات عليا وموظفين ونخبة متوسطة قادمة من القرى والسواحل أصبح هائلا (١٨ مكرر) بحيث يتضخم تيار النزوح ويفقد المحتوى الذي كان عليه في فترة الاستعمار المباشر .

٣ ــ تحرك اجتماعي كبير وحركة تعليمية واسعة :

لقد مثلت المدن الكبيرة منذ الاستقلال اقطاب جاذبية(Pôles D'Attraction) للسكان منذ الاستقلال واذا استطاعت ادماج عدد كبير من هؤلاء السكان في قطاع نشاطهم القديم فمرد ذلك الى :

أ ــ تعويض المعمرين بالسكان الاصليين وهذا التعويض هو الذي سمح لبعض الوطنيين بالتدرج في السلم الاجتماعي أفقيا وعرضيا .

ب ــ تدعيم المهام السياسية والادارية والثقافية لهذه المدن الكبيرة مما سمح بتقوية طاقة التشغيل .

ان رجوع الاجانب الى أوطانهم فتح آفاقا عريضة لاهالي شمال افريقيا في اغلب قطاعات النشاط الاجتماعي . فازداد عدد فرص الشغل بالمدن (موظفون ، خدمة ، جنود وعمال مختصون) ٦ بل ١٠ مرات بالنسبة للجزائر عما كان عليه من قبل (١٩) ويمكن أن نتخيل الى أي حد استطاعت هذه التخبيرات التي ينعتها سمير أمين « بالعظم » ، تحويل الهياكل الاجتماعية

في المدن بسماحها لظهور وتقوية طبقات وسطى جديدة ونخبة محظوظة بالقياس الى الشرائح السفلى للبروليتاريا التي تضخمت بلا انتهاء . وتدل بعض الاشارات دلالة واضحة على ان شمال افريقيا بعد الاستعمار المباشر اصبح مجتمعا تحدوه تناقضات بين فصائله . وتقطعه طبقات اجتماعية تتضح في ازدياد ابتداء من ١٩٥٥ (٢٠) .

ان بروز نخبة جديدة انبثقت عادة من اوساط اجتماعية متواضعة وتقوية الطبقات الوسطى قد تدعما بالسياسة التعليمية التي حققت ، بدرجات متفاوتة في البلدان الثلاثة ، ارقاما قياسية ولنضرب مثلا بتونس التي وصلت نسبة النمو السنوي بها للاطفال المدرسيين (اي الذين دخلوا المدرسة) (Scolanisés) الى ٢٧٪ . ففي ١٩٧٠ — ٣٠٪ من الميزانية و ٩٪ من المدخل القومي خصصا للتعليم وفي الجملة فقد استطاع ٨٠٪ من الاطفال الدخول الى المدارس ويمكن بسهولة تقييم هذه السياسة التعليمية حين نعلم ان تونسيا على اربعة سنة ١٩٧٠ (٠٠٠ر١٢٢ر١ تلميذ على ٠٠٠ر١٠٠ر٥ سكان) له وضعية طالب أو تلميذ وان الاغلبية الساحقة من السكان في طور التعليم قادمة من اوساط شعبية .

٤ — تطور عملية التصنيع :

يأخذ التصنيع في التحول السريع في بلدان شمال افريقيا بعد سنوات التردد . والامر جلي في بلد كالجزائر الذي اقر العزم على المضي قدما نحو تحقيق مجهود جدي ومنظم ليستغل خيراته ويكون قطاعا صناعيا كبيرا . وهاكم بعض ارقام تمثل التمويلات السنوية الجزائرية ٥٪ من الانتاج الداخلي سنة ١٩٦٣ و ٢٩٪ سنة ١٩٦٩ . وبالنسبة للفترة نفسها تقدر التمويلات الصناعية بـ ٢٣٪ و ٥١٪ من جملة التمويلات . وتزداد عملية التصنيع حدة في المخطط الرباعي الجزائري (١٩٧٠ — ١٩٧٣) حيث يتوقع تمويل قدره ٧ر٢٧ من المليارات من الدنانير اي ٣٥٪ من الانتاج الداخلي . وستحصل الصناعة منه على ٤٥٪ (٢١) .

اما في تونس فان حركة التصنيع التي انطلقت من « قطاع صناعي هزيل » استطاعت ان تحقق مكاسب عديدة في ظرف عشرية واحدة ، ولقد ساهمت (وخاصة بخلقها « نواة صناعية للتنمية ») ، في التخفيض من حدة انعدام التوازن التوجيهي السابق وخلق ديناميكية تحول توجيهي حقيقي . وهذه بعض الامثلة التي تجسد العزم على التنشيط التوجيهي : خلق الصناعات الكيميائية في الجنوب (قابس) تقدر بـ ٥٠ مليون دينار ، بعث صناعات الملابس بالساحل (سوسة ، المنستير وقصر هلال) استخدام عشرات الآلاف

من العمال في معمل الفولاذ وتركيب القطع ببنزرت وختاما قطاع سياحي كبير متواجد بالوطن القبلي (الحمامات) وقد اعتبرت قيمة التمويلات كبيرة ولكن انعكاس هذا التصنيع على التشغيل رغم ايجابيته في قطاع السياحة والملابس ظل سلبيا بحكم ارتفاع رساميل أغلب الصناعات المنشأة سواء كان هـذا بالنسبة لتونس أم الجزائر (٢١ مكرر) .

الخـلاصـة : ان المفارقة (Paradoxe) في شمال افريقيا بعد الاستعمار المباشر تمكث في انه رغم التحولات المرحلية المنجزة (تعليم ، ارجاع الخبرات المغتصبة ، تصنيع ، حركية اجتماعية) بقيت مشاكل جوهرية كنزيف النزوح والهجرة الى الخارج وكثرة البطالة واحتداد التناقض بين الفئات والطبقات الاجتماعية .

وهذه المفارقة لا تجد تفسيرا مقنعا لا في مخلفات الاستعمار ولا في التبعية الاقتصادية ازاء الرأسمالية العالمية لذلك لا بد من الاخذ بعين الاعتبـار « الطرق الخصوصية » للتطور التي اختبرت ، وتناقض المصالح والتحالفات الطبقية . كل هذه العوامل اذا اجتمعت تستطيع أن تفسر الوضعية العامة الحالية للمجتمعات الشمال ـ افريقية .

الفصل الثالث : ابحاث جديدة حول الاحياء القصديرية :

وبناء على ذلك يتوجب علينا وضع مشكل الاحياء القصديرية في اطاره كي يتسنى كشف الجوانب السوسيولوجية العامة لهذا المشكل .

لقد تضاعف سكان الاحياء القصديرية ابان الاستقلال الوطني رغـم المحاولات للحيلولة دون النزوح الريفي ورغم الهجرة المتعاظمة الى الخارج . ورغم المجهودات الجزئية والحقيقية لتثبيت الوضعية السكانية التي تمتاز بالبطالة وسوء التشغيل وضعف التكوين المهني ومستوى العيش . واخيرا فان سكان الاحياء القصديرية التي ازداد عددها بقدوم اهالي المدن الفقراء ، أصبحت تمثل نصف سكان المدن الكبيرة في شمال افريقيا . ان هذا النوع من التحولات في الهياكل السكنية المدينية يفرض علينا منهجا جديدا في تحليـل الهياكل الدناميكية والآفاق المستقبلية للمدن الشمال ـ افريقية .

١ ـ التضخم السكني في الاحياء القصديرية :

نجم عن الحركة العمرانية السريعة التي عددنا اهم عواملها تضخـم سكني هائل . ان نسبة السكان الذين يسكنون الاحياء القصديرية في اهم مدن شمال ـ افريقيا تفوق ربع جملة السكان واذا اعتبرنا أن سكان ما يسمى

بالمناطق « العفنة » والمدن الفقيرة الآهلة بالسكان والريفية في وضع يشابه سكان الاحياء القصديرية ، يظهر جليا اي نصف سكان المدن الكبـــيرة هامشيين .

ففي تونس ومنذ الاستقلال تضاعف عدد سكان الاحياء القصديرية وازداد أكثر من الضعف رغم سياسة ما يسمى باقتلاع الاكواخ والاجراءات الادارية لشل النزوح والمهجودات المتواصلة في القطاع السكني وبالتالي فقـد قفز السكان من ١٠٥ر٠٠٠ في ١٩٥٦ الى ١٦٠ر٠٠٠ في ١٩٦٦ الى ٢٢٥ر٠٠٠ في ١٩٧١ . أما في الدار البيضاء فان ربع السكان اي ٤٠٠ر٠٠٠ نسمة يعيشون في الاحياء القصديرية وتشترك تونس مع الدار البيضاء في ان ثلثي السكان هم من أصل ريفي . وهذا النزوح حديث العهد بحيث أن أكثر من نصف السكان قدموا ابتداء من ١٩٥٦ (تونس بالخصوص) مما سيسبب صعوبات في الاندماج في الحياة الحضرية وفي دولاب الشغل .

٢ ــ البطالة وسوء التشغيل وضعف مستوى العيش :

انه لمن السهل تخيل ظروف الشغل في الاحياء القصديرية حين نعلـم أن عدد العاطلين عن الشغل يرتفع الى المليون سنة ١٩٧٠ وتؤكد التحقيقات الحديثة حول مدينة تونس ضخامة سوء التشغيل وضعف مستوى العيش . وأظهر بحث حول التشغيل والمداخيل في تونس الكبرى ، أن نصف أرباب العائلات من جملة السكان لهم مدخول شهري يتراوح بين ١٠و٢٢ دينارا (٢٢). وزيادة على ذلك يتميز سكان الاحياء القصديرية بعدم الكفاءة وضعـف الاختصاص بحيث لا نجد سوى العاطلين او نصف العاطلين عـن الشـغل والعمال اليدويون والعمال اليوميون ، والباعة المتجولون وعملة البيـوت والتجار الصغار وعمالا من « غير شغل محدد » ونخص بالذكر ان المدينـة وضواحيها والاحياء القصديرية تحتوى سنة ١٩٦٦ على ٧٨٪ من السكان لها مدخول شهري يتراوح بين ١٠ و ١٢ دينارا و ٧٨٪ من هؤلاء السكان من عائلات تشتغل باعة متجولة و ٦٣٪ من مجموع سكان الوحدات البلدية (Population Ménage de la Commune). ان الاحياء القصديرية وحدها تمثل ٤ر٣٠٪ من مجموع سكان الوحدات البلدية و ٤٢٪ من عائلات هذه الاحياء لها مداخيل شهرية تتراوح بين ١٠ و ٢٢ دينارا ويصور (انداره آدم) فـي أطروحته حول الدار البيضاء أوضاع اسوء الى درجة انه يقول : « لقـد ازداد عدد العاطلين عن العمل منذ ١٩٦٠ وزادت الحالة سوءا في اواخر هذه السنين » ويظهر أن سكان الاحياء القصديرية ساد فيها سوء التشغيل وضعف المعيشة والتكوين المهني فيقول : « أن العديد مـن الرجـال لم

يحصلوا على شغل مستقر وحظوظهم ضئيلة لكي يحصلوا عليه مستقبلا . ان اغلبهم يعملون هنا وهناك في المهن الصغيرة التي تقتر عليهم النفع القليل لكي لا يموتوا جوعا . وما العدد المتزايد من الباعة الصغار المتجولين الا بطالة مقنعة » (٢٣) .

٣ ــ التنضيد الاجتماعي (Stratification) **في الاحياء القصديرية :**

ولا تخدعنا رغم مستوى العيش الضعيف وانعدام الاختصاص في سكان الاحياء القصديرية تلك الصور التي يقدمها لنا بعض الناس والتي تذهب في نزعة من المبالغة الى القول بالمجانسة (Homogénété) بين السكان بسبب من الفقر والحاجة . هذا التصور يتناقض والتنضيد الاجتماعي الذي نشاهده على الاقل في الاحياء القصديرية القديمة (كالجبل الاحمر بتونس) وهو التنضيد الذي يسمح بتمييز السكان المحظوظين عن الاخرين . ومن النتائج التي وصلت اليها ابحاث حديثة (٢٤) حول الحي القصديري في الجبل الاحمر الآهل بالسكان نجد العناصر المعمرة التالية :

ا : الهيكل المجتمهني (Socio-professionelle) **للسكان**

١ : لا عمل لهم	١١٪
٢ : العمال اليوميين	٣٢٪
٣ : عملة في القطاع الحديث والادارة	٣٢٪
٤ : التجار الصغار والحرفيون	١٩٪
٥ : مستخدمون وموظفون	٦ ٪

ب : المسكن

ثلثا السكان لهم مساكن حجرية اي ٧٣٪ و ٢٧٪ لهم اكواخ .

ج : التعليم

١ ــ الاطفال الذين هم في المدارس والمتراوحة اعمارهم بين ٦ر١٤ سنة (٨٨٪) واناث (٧٨٪) .

٢ ــ الفتيان بين ١٥ و ١٠ سنة : ذكور (٥٠٪) اناث (٣٣٪) .

د : ديناميكية النزوح

يعد سكان الجبل بـ ٣١٪ قبل ١٩٥٤ .
في ٥٠ــ١٩٥٩ اسهام جديد بـ ٣٤٪ .
في ٦٠ــ١٩٦٨ اسهام جديد بـ ٣٥٪ .

وبالتالي فالنتائج هـــذه تظهر مدى عمق عمليـــة الحـــركة الاجتماعية (Mobilité Sociale) في الجبل الاحمر الذي ، وان كان سنة ١٩٥١ يعد الثلثين من البطالين والعمال اليوميين فقد أصبح سنة ١٩٧٠ لا يعد الا ٤٣٪ وفي نفس الفترة مرت نسبة عمال الصناعة الحديثة من ١/١٠ الى ١/٣ ان هذه الارقام تدل دلالة واضحة على الحركية الاجتماعية الحقيقية التي عرفها الجبل الاحمر تؤكد أن الاوساط القصديرية ليست أوساطا سوسيولوجيـــة جامدة حيث يمثل انعدام الاختصاص المهني وجمود الحركية الاجتماعية وكثرة البطالة، القاعدة الرئيسية . ويمكن أن نذهب الى أكثر من ذلك فنقول ان الفضـــاء الاجتماعي القصديري سجل تقدما نسبيا على المدن الفقيرة الريفية كما أوضح (أندراه آدم) حين يقول ان « نسبة السكان العاطلين ضعيفة في الاحياء القصديرية بالقياس الى المدن القديمة والحديثة » (٢٥) ان هذه الظـــاهرة تجد تصديقا لها في مدينة تونس حيث أثبت تحقيق حديث (٢٦) أن الهيكل الاجتمهني (Socio-professionelle) للسكان النازحين لها أسوأ من ذلـــك الذي يوجد في الاحياء القصديرية . ولكن هذا لا يعني أن الوضع العام فـــي أغلب الاحياء القصديرية يشبه ذلك الذي يوجد في الجبل الاحمر . لقد أردنا بهذا المثال التذكير بأن الاحياء القصديرية رغم بؤسها تعرف حركية اجتماعية ذات بال وهي بالتالي تفتقر الى تحليل في اطار علم الاجتماع الكلي للاحياء القصديرية .

٤ ــ سكان المدن الفقراء والطبقات السفلى للبروليتاريا (Sous-prolétariat) في الاحياء القصديرية والفلاحون المعدمون :

واذا أردنا مقارنة سكان الفقراء والفئات السفلى للبروليتاريا في الاحياء القصديرية بالفلاحين المعدمين والباقين في الريف نلاحظ أن الاولين رغم ضعف مستوى عيشهم وتكوينهم المهني وسوء التشغيل لهم وضع أحسن من ذلـــك الذي يعرفه الفلاح المعدم الذي استقر في الريف حيث نسبة التشغيل ضعيفة (أقل من ٤٠٪) ونسبة التفسخ الاخلاقي كبيرة (٢٦ مكرر) .

ويثبت بحث حديث يقارن الوسط القصديري بالوسط الريفي في تونس أن سوء التشغيل وتدهور مستوى العيش وتفسخ القيم الثقافية كبير فـــي الوسط الريفي (٢٧) ويصل الباحث الى القول ان « البطالة وسوء التشغيل أكثر حدة في بن بشير (منطقة فلاحية غنية بالامكانيات الطبيعية) مـــن الجبل الاحمر (حي قصديري بتونس) زد على ذلك أن عائلات الفلاحين المعدمين في بن بشير ليست لها امكانية كبيرة في ايجاد شغل بينما يتمتع أبناء الجبل الاحمر

بأمل في العمل في معمل صناعي من معامل العاصمة أو بالقيام بنشاط هامشي في القطاع الثالث » .

ان تفسخ القيم الثقافية في وسط اجتماعي فقد قاعدته المادية يزيد الطين بلة ويدعم الاضمحلال الاجتماعي وأخذ سكان الريف يحطون من وضعهم وينظرون الى انفسهم باستخفاف الى درجة انهم فقدوا حتى شعورهم بوضعهم . واذا كان يخيل لنا انهم يتشبثون بوضعهم هذا فانما ذلك ناتج عن يأس وليس عن تعلق كما يثبته التحقيق : « ان نماذج اغلبية سكان الريف فقدت قيمتها لا من طرف الاقلية الحضرية فحسب ولكن كذلك في نظر العديد من الفلاحين الذين بقوا متعلقين بالمثل القديمة لا لشيء الا لانهم لا أفق لهم » .

٥ ــ الحد من النزوح والهجرة الى الخارج :

في هذا الوضع المتأزم الذي يمتاز بمدن فقيرة واحياء قصديرية معدمة وأرياف متدهورة حاول النظام السياسي شل النزوح والتنقيب عن حل لايقاف البطالة فشجع سياسة الهجرة للخارج ولكن فشلت كل المحاولات للحيلولة دون النزوح . فلا الاجراءات الادارية الجزرية (بتونس) ولا السياسية المالتوزية (Malthusienne) في البناء العمراني (بالجزائر) ولا المحاولات الاولية المتفرقة في الاصلاح الزراعي في شمال افريقيا استطاعت تكبيل جماح النزوح ، بل على العكس من ذلك سمحت سياسة التعاضد الفلاحية بتقوية عملية النزوح.

ومن ناحية أخرى نلاحظ منذ بداية الاستقلال الوطني تشجيع سياسة هجرة العمال الى أوروبا . وعرفت هذه الهجرة تضخما كبيرا وتطورت بصفة استثنائية في جميع أنحاء شمال افريقيا بقطع النظر عن النظام السياسي القائم . ويعد عمال شمال افريقيا المشتغلون في اوروبا برقم يفوق المليون سنة ١٩٧٠ ، وعلى سبيل المثال نرى أن حجم اليد العاملة الشرعية التونسية التي هاجرت في أربع سنوات تضاعف اذ مر من ٧٠ر٠٠٠ سنة ١٩٦٦ الى ١٤٠ر٠٠٠ سنة ١٩٧٠ (٢٨) . وبالتالي فان عدد الايدي العاملة المهاجرة الى الخارج تفوق الايدي العاملة التي تشتغل في الصناعة (١١٠ر٠٠٠ سنة ١٩٧٠) أما الجزائر فان عدد العاملين الجزائريين في أوروبا تضاعف منذ الاستقلال (٤١٨ر٠٠٠ في ١٩٦٢ و ٧٤٠ر٠٠٠ سنة ١٩٧١) وتبرز العديد من العلامات أن الهجرة الى الخارج في ازدياد متواصل خلال السنوات المقبلة وعليه فان شمال افريقيا يمتاز بوضعية متناقضة تتلخص في أن هذا المجتمع ضل طبقته الشغيلة ووهبها الى الغرب.ويمثل الموقفان (الاجراءات الادارية والهجرة الى الخارج) في الحقيقة مظهرين من سياسة واحدة فأمام ضخامة التحولات الجارية في شمال افريقيا بعد الاستعمار المباشر وعجز

النظام الحاكم عن حل مشاكل التشغيل لا بد للنظام هذا أن يحمي نفسه من نتائج هذا الوضع وليس مدهشا ان نرى الاقليات المدينية في السنوات الاخيرة (وخاصة في فترات الازمات) تضغط بحدة وتلقي صيحة فزع ازاء السكان النازحين وأخطار تحولهم الى المدن . ويمكننا في هذا الصدد الرجوع الى الجرائد اليومية حيث ينظر الى سكان الاحياء القصديرية من خلال خطابات المسؤولين ورسائل القراء على أنهم كارثة اجتماعية وخطر عمومي . ومن المهم أن نقوم حاليا ببحث حول تصورات الفئات المختلفة والنخبة الحاكمة ومختلف الشرائح المدينية المحظوظة ، للنزوح وللسكان فحسب بل تعبيرات لا شعورية لنماذج متغلغلة في الشعور الجماعي لسكان شمال أفريقيا تتمثل خاصة في التناقض والتباين بين عمرانين يرجعان الى عهد قديم وهما العمران الحضري والعمران البدوي وما ينجم عن هذا المفهوم المؤمن بأن البداوة « خراب العمران » .

٦ ــ سكان الاحياء القصديرية والهامشية الاجتماعية :

ان عددا من الابحاث حول سكان الاحياء القصديرية والمدن الفقيرة ينعت بتسرع هؤلاء السكان بالهامشية . ان هذا الحكم لا يؤول تأويلا صحيحا الحقائق ولا يصعب كشف تحتياته الايديولوجية . هل يمكن اعتبار نصف سكان المدن الكبيرة هامشيين ؟ الا يستحسن اعتبار وجود هؤلاء السكان خلاصة التغييرات الهيكلية العميقة في المجتمع الشمال أفريقي شكلا ومضمونا وبالتالي محاولة تفسيرها منطقيا ؟

ان مفاهيما كالهامشية والاندماج لا تسمن ولا تغني من جوع في مجتمع يعرف تطورا عمرانيا كبيرا في فترة قصيرة نسبيا ، في مجتمع تضاعف سكانه في عشرية واحدة وفي مجتمع نصف سكانه المدينيين يشكون ضعف التشغيل وضعف المعيشة . (وبالتالي نجد أنفسنا أمام وضع متعفن بأكمله لا تجانس ولا تناسق فيه) .

ففي الحقيقة ما ظاهرة النزوح الا النتيجة الحتمية لاهم التغييرات الطارئة على الريف الشمال ــ أفريقي (انتزاع الارض ، ادماج الفلاحة الحديثة والتغييرات التقنية والتنظيمية ، تفكيك الشعور الجماعي Conscience Collective اصلاحات زراعية حديثة نمو طبيعي لا محدود للسكان) ولتشويش الهياكل الاجتماعية والفلاحية (ضعف العلاقات والهياكل الابوية ، افقار السكان ، تفسخ القيم الثقافية) بحيث يعتبر النزوح هو النتيجة المباشرة للمجتمع الريفي وليس التعبير عن ديناميكية المجتمع الحضري . وبناء على ذلك فان ظاهرة النزوح لا تمثل حدثا هامشيا ومعلقا بين الارض والسماء وانما تعبير

عن تركيبة اجتماعية ومن ناحية اخرى حاولنا ابراز الفرق بين العمران الحضري للمجتمعات الصناعية الذي كان مصحوبا بنمو صناعي حقيقي وهائل بين العمران الحضري لشمال افريقيا الذي يشكو تخلفا صناعيا . وتتضخم المدن بالسكان دون أن يصحب هذا التضخم قدرة انتاجية حقيقية وفي هذه الظروف لا يبدو النزوح التعبير عن ديناميكية داخلية للتطور وانما نتيجة غياب التطور . ان هذا الوضع يفسر بالتبعية المباشرة في الفترة الاستعمارية والتبعية غير المباشرة بعد الاستعمار المباشر كما يفسر بالتناقضات الداخلية والطبقات اللامتساوية التي تنخر المجتمع والناتجة من تغيير جذري للهياكل الاجتماعية . وبهذا يعجز النظام الاجتماعي عن ادماج عدد كبير من السكان في هياكل الانتاج وهذا لا يعني أن السكان لا يدورون في فلك النظام الاجتماعي وبالتالي فهم هامشيون بل يعني بالعكس أن هذا العجز مؤشر واضح لمحدودية النظام ولاختناق هياكله .

٧ ــ الهامشية ام بوادر تركيبة اجتماعية جديدة :

يبدو كأن المجتمع الشمال ــ افريقي قد تحول من تركيبة اجتماعية الى اخرى يصعب تحديدها في الفترة الحالية لما تتطلب من مجهودات نظرية مفقودة في الوقت الراهن . ويمكن القول ان الاشكالية (Problématique) السائدة في الابحاث حول هذا المجتمع هي شكلية طبقية قبل كل شيء فمنطق الفئات القديمة قد ولى . و « الصراع الطبقي كلمة تجمع كل ما يجرى من تناقضات حالية ومستقبلية » كما يصرح حديثا بارك في دراسة حول فاس (٢٩) .

ان لمحة تاريخية يمكن أن تساعدنا على فهم هذا الوضع . اننا نعلم أن المدينة القديمة تعتبر منطقة مفضلة حيث يلتقى المجتمع بأسره بحيث تظهر المدينة وكأنها مجتمع قائم على سلم اجتماعي واندماج نسبي لمختلف الاطراف الاجتماعية : الحرفيين ــ التجار ــ العلماء (الثلاثية القديمة) . ان هذا العالم السوسيولوجي وان لم يخل من صراع وتناقضات فانه يمتاز بالاندماج والتناسق والتوازن النسبي . اننا أمام مجتمع يعيش لنفسه وينظر لذاته (Intraverti) وباستطاعته أن يوازي ويوفق بين المصالح الموجودة .

لقد فقد هذا الانموذج كل صلاحيته فحين تغادر البورجوازية القديمة فضاءها العمراني لتحل بمكان اخر تفقد في الوقت نفسه سورها وسلطتها ونفوذها (بدرجات مختلفة حسب المجتمعات الثلاثة) تحت تأثير ومنافسة الوظائف الاقتصادية الجديدة وصعود نخبة أخرى في السلم الاجتماعي . ومن ناحية أخرى تتسع قاعدة الطبقات الوسطى بفضل السياسة التعليمية الواسعة والحركية الاجتماعية الكبيرة والمهام الادارية الضخمة . أما الطبقة العاملة

فلم تعـد « جنينيـة » (Embryonnaire) بداية من عصر التصنيع رغـم محدودياتها ورغم الهجرة الى الخارج . أما الفئات السفلى للبروليتاريا فهي في اتساع متزايد نتيجة تفكك المجتمع الريفي وضعف الطاقة الانتاجيـة للمدن .

ان الهيكلية الجديدة يمكن أن تحدد بصورة أكثر دقة موقف سـكان الاحياء القصديرية داخل التركيبة الاجتماعية الشمال ـ افريقية الحالية . وتسمح سلسلة من المؤشرات (تصورات الثقافة ، المجتمع ، الحضارة العالمية) برفض اطلاق اطروحة الهامشية على سكان « المدنيين الجدد » وتشهد بمحدودية النظام الاجتماعي وهشاشيته (Rigidité) ولكن ليـس بالهامشية « الحتمية » لسكانه . والشيء الذي لا يجب التغافل عنه هو ان أهداف الطبقات التي عددناها آنفا لا تتمـاشى والغايـات والاختبـارات الاجتماعية يعني أنها في التحليل الاخير لا تتماشى ومطامح الاقليات الحضرية المحظوظة والطبقات المهنية . لنحتط اذا من الانزلاق في الحديث عن الهامشية في حين اننا أمام تناقضات قائمة في صلب تركيبة اجتماعيـة فـي حـالة مخـاض .

٨ ـ الآفـاق المستقبلية :

في امكاننا أن نتساءل عن درجة التناقضات المتولدة عن ظهور الهياكل الطبقية الجديدة وعن قدرة النظام الحالي على مجابهة الوضع . ولكن مـن الصعب الاجابة عن هذا التساؤل . لنقتصر اذا على بعض الاحتمالات . في صورة ما اذا تحققت اصلاحات جوهرية وهيكلية . (جماعية الاراضـي Collectivisation تأميم واشتراكية قوى الانتاج ، القضاء على التبعية الاجنبية) بامكاننا التخفيض من حدة التناقضات لا غير . فيكون في استطاعتنا تشغيل أكبر عدد ممكن ولكن لا يمكن استيعاب كل البطالين لان الطلب يقـل عن امكانيات العرض بكثير . ويمكن افتراض انعدام تحرك اجتماعي ويبقى الوضع كما هو فتتعفن الامور وتتصدع الوضعية وتحدد التناقضات ولكن هذا لا يعني بقاء النظام الحالي وربما لمدة طويلة .

يبدو كأن كلا من الاحتمالين يمكن أن يتحقق لوجـود الظـروف السوسيولوجية المناسبة . ان الابحاث الجديدة التي ستقام حول الاحيـاء القصديرية والطبقات السفلى للبروليتاريا سوف تثبت هذا وتظهر الظـروف السوسيولوجية الحقيقية وسوف تسمح لنا معرفة مدى تأثير هؤلاء السكان على الحياة الاجتماعية والسياسية وستقيم لنا درجة وعيهـا السياسـي وتكوينها . ويمكننا البحث كذلك عن آفاق اندماج هؤلاء السكان في المدن كما

هو الحال في تاريخ المدن العربية والاسلامية أو البحث على العكس عن آفاق بقائها متصدعة وكأنها آخذة بالثأر للمستقبل « الحديث » للمجتمع الشمال ــ افريقي .

الخلاصة : لقد حاولنا من خلال هذا العمل فهم بعض مظاهر العمران الحضري التي تسببت في ظهور وامتداد الاحياء القصديرية وثبت لدينا أن هذا المشكل ومشكل النزوح لا يمكن فهمهما الا عند وضعهما في اطارهما الاجتماعي الكلي الذي يعبران عنه .

وعليه فان ظاهرة كالنزوح تعتبر عملية اجتماعية لا تكسب ما فيها من معان الا اذا سلكنا منهجا اجماليا (Holistique) يفرض علينا الرجوع الى النظام الاجتماعي الكلي الذي يفسر فيما يفسر ظاهرة النزوح . أما النمو السريع للسكان فيرجع لعاملين .

أ ــ ازدياد نسبة النمو الطبيعي .

ب ــ النزوح البدوي ــ الحضري . ان النزوح ليس الا النتيجة الحتمية لتفكك المجتمع الريفي وليس هو بالتعبير عن ديناميكية المجتمع الحضري .

ومن هنا يجدر بنا أن نتساءل لماذا انعدلت حركات النزوح السريعة وغير المنتظمة انطلاقا من نفوذ البنية الاجتماعية الاستعمارية والبنية الوطنية وهيمنتهما على البنية الاجتماعية « القديمة » ان الجواب على هذا السؤال الاساسي انما يكون دراسة العمران الحضري ويتطلب مجهودا تنظيريا محددا (Théorisation Spécifique) ما يزال جنينا في الفترة الحالية . ولكن بامكاننا تلخيص الظروف الهيكلية المحددة لعملية النزوح والتي ذكرنا بعضا منها آنفا .

١ ــ ان نهب الاراضي أنتج فقرا مدقعا للسكان الريفيين .

٢ ــ ان تحطيم دواليب الانتاج الفلاحي القديم ومزاحمة القطاع الحديث له أصبح قطاعا مهيمنا صير القطاع القديم ذيلا للسوق العالمية التي تتسبب في تأرجح الاسعار وتنتج البطالة وتقوي التبعية .

٣ ــ تزايد النشاز (Dissymétrie) الواقع بين سكان ريفيين في حالة نمو سريع وانتاج فلاحي في حالة انخفاض هائل أو في حالة استقرار .

٤ ــ عدم تساوي نفقات العيش والمداخيل بين المدن والارياف أصبح واضحا وأنتج تبعية أكبر للريف .

٥ ــ عدم تطابق القاعدة الاقتصادية مع الهياكل الاجتماعية في الريف لمس النظام الاجتماعي والثقافي وأحدث ضعفا في طاقاته الاندماجية وفي المراقبة الاجتماعيـــة .

٦ ــ الهوة التي تفصل بين حركة النزوح وبين امكانيات الشغل في نظـــام الانتـــاج .

٧ ــ ضعف الانتاج الصناعي والحرفي (Artisanal) سبب انخفاضـــا في الانتاجية باستعمال يد عاملة كثيرة وذات ثمن بخس .

٨ ــ تضخم النظام الاداري (من جراء نوع الحرفاء الجهويين) يقطع النظر عن الحاجيات الحقيقية لهذا القطاع .

وخلاصة القول أن العمران الحضري في شمال ــ افريقيا في ظواهره الحالية لا يعبر عن عملية « تحضر » وانما عن تدعيم التناقضات الاجتماعية الناجمة عن نمط تطور محدد بالتراث الاستعماري والتبعية العالمية وتجـــذر متناقضات المصالح المتواجدة والتحالفات الطبقية المعقدة .

ودوام النظام يتوقف على قدرته على استيعاب الوضع ومهارتـــه في أخذ المواقف وبعد تجربة التأميم والتعليم اللتين ركزنا عليهما آنفا ، لا بد من ابتكار مشاريع أخرى كلية تكفل حث الهمم وايقاد العزائم وارجـــاع الثقـــة في المستقبـــل .

NOTES

1 - A. de Broglie: *Une réforme administrative en Algérie.* Paris 1860.

2 - Pierre Bourdieu: *Voir Ses Travaux Sur L'Algérie.*

3 - Samir Amin: *L'économie de Maghreb,* T.I.

4 - Voir en particulier les travaux de:
Mahmoud Saklani: *Villes et Campagnes en Tunisie.* Rev. PoPulation, n° 3, 1960.
Robert Descloitres: *l'Algérie Des Bidonvilles,* Paris 1961
André Adam: *Casablanca.* Paris 1968.

5 - Te terme de bidonville se répand à partir de 1936, On le trouve dans le livre de Félicien a propos de ta Tunisie (1934).

5 - bis Robert Montagno: *Naissanse du prolétariat Marocain.* voir chapitre II

sur les bidonvilles.

6 - A Tunis la population des bidonvilles double en l'espace d'une décennie passant de 50.000 en 1946 à 105.000 en 1956.
A Alger la population des bidonvilles est de 86.000 soit 29% de la population totale.
A Casablanca 100.000 personnes vivent en bidonville en 1950.

7 - Cette thèse de l'urbanisation sans industrialisation est largement vérifiée pour beaucoup de pays "sous-développes".
Pour sa démonstration nous renvoyons à l'important travail théorique de Manuel Castells: Structure sociale et processus d'urbanisation: Analyse comparative inter-sociétable. Rev. Annales, n° 4, 1970.

8 - Samir Amin: *Le Maghreb Moderne.* Paris 1970.

9 - Robert Descloitres: *l'Algérie Des Bidonvilles.*

10 - André Adam: Casa.

11 - Dardel et Klibi: *Djebel Lahmar.* Rev. Cahiers de Tunisie n° 10. 1955.

12 - Paul Sebag: *Un Faubourg De Tunis : Saïda Manoubia.* 1960.

13 - George Balandier: *Sans et Puissance.* 1971.

14 - Jacques Berque: *Pluriels.* Rev. Esprit, Juillet 1972.

15 - Au Maghreb la population urbaine représente aujourd'hui plus de 30% de la population totale et doit atteindre 45% au Maroc et 55% en Tunisie en 1985.

16 - André Adam: Casa.

17 - A. Zghal: *La Protection Sociale et L'Urbanisation Des Ruraux en Tunisie.* 1970.

18 - M. Picouet: *Aperçu des migrations intérieures en Tunisie.* Rev. Population, Mars 1971.

18 - bis H. Attia: *l'urbanisation de la Tunisie.* 1970.

19 - S. Amin: *le Maghreb Moderne.*

20 - Jacques Berque: *Fez Ou Le Destin D'Un médina.* Rev. C.I.S. 1972.

21 - Gérard De Bernis: *Les Industries Industrialisantes et les Options Algériennes.* Rev. Tiers-Monde n° 47, 1971.

21 - bis Samir Amin: *Le Maghreb Moderne.*

22 - H. Eckert: *les populations du grand Tunis,* 1970.

23 - A. Adam: *Casa.*

24 - A. Zghal: *enquête citée.*

25 - A. Adam: *Casa.*

26 - M. Eckert: *La Médina Centrale, Faubourg Ou Gourbiville.* 1970.

26 - bis A. Bouhdiba: *Criminalité et Changements Sociaux en Tunisie.* 1965.

27 - A. Zghal: *Enquête citée,* 1970.

28 - M. Seklani: *Déjà cité.*

29 - J. Berque: *Fez.*

30 - A. Zghal: *Déjà Cité.*